المكان من الطبيعة إلى الثقافة: مكة المكرمة رمزاً في الشعر السعودي الحديث

الدكتور صالح غرم الله زيَّاد*

الملخص

تحاول هذه الورقة دراسة مكة المكرمة من خلال موضوعات قصائدها في الشعر السعودي، وتسعى إلى الكشف عما يؤلف تلك الموضوعات من صور ورموز وأوصاف تستحيل بها مكة إلى مدلول روحي وثقافي وجمالي يتعانق فيه الغيب والشهادة، ويتداخل الزمان والمكان، وينجلي به التوق الإنساني إلى الطهر والنقاء وإلى الترامي في فضاءات المطلق حيث انصهار العدد واتحاد التنوع الإنساني.

فقد دخلت مكة، من خلال الشعر، إلى فضاء التمثيل للمعاني الروحية والدينية تمثيلاً غنائياً يفقد المكان جموده وحياده ويصله بالروح في تدفقها وابتهاجها ولذتها بالقدر الذي تتجلي فيه تلك المعاني الروحية والدينية في التفاعل مع مكة مجلى الحس: بصراً، وسمعاً، وشماً، وذوقاً...

* قسم اللغة العربية– كلية الآداب– جامعة الملك سعود

1ــ المكان الطبيعي والمكان الثقافي:

أول ما يمكن أن نَعْرِفه عن (مكة) هو أنها "موضع" أو " مكــان" وعــادة مــا يُوْصف الموضع أو المكان المتعين في الأذهان بأنه "معروف"، ومعرفيته هذه صيرته "عَلَماً" في المصطلح النحوي، أي إنه اسم يعين مسماه تعييناً مطلقاً، فهو مختلف عــن غيره من المعارف من جهة الإطلاق هذه، لأن المعارف، غير العلم، تُعين مــسمياتها تعييناً مقيداً بالصلة أو التكلم أو الإضافة أو الإشارة ...الخ.[1]

هذه العَلَمِيَّة التي نَعْرِفُ بها (مكة) تعني أن موضعها أو مكانها امتاز عن غيره من الأماكن أو المواضع، فدخل إلى التصور الذهني للمتكلمين بشكل معين ومحــدود. وما دام أن النكرة "أصل" والمعرفة "فرع" والعموم سابق على التعــين، كمــا يقــرر اللغويون[2] ، فإن تعين "مكة" مكانياً مصاحب لخروجها من الطبيعة إلى الثقافة، ومــن الجغرافية إلى التاريخ، ومن الجهل والعمى إلى المعرفة والــوعي الإنــساني، ومــن الإطلاق إلى النسبية.

استحالت "مكة" – إذن – من خلال عَلَمِيَّة التسمية لها إلــى "مكــان معــروف" والمكان – مطلقاً– يعني كما يقول ياسين النصير: "بدء تــدوين التــاريخ الإنــساني.. ويعني الارتباط الجذري بفعل الكينونة لأداء الطقوس اليومية للعيش، للوجــود، لفهــم الحقائق الصغيرة، لبناء الروح، للتراكيــب المعقــدة والخفيــة لــصياغة المــشروع الإنساني"[3].

وقد تحطمت، وفق هذا المنظور، نظرية إســحاق نيــوتن (ـــ1727م Isaac Newton) بخصوص المكان والزمان، التي تصور فيها وجود زمان ومكان مطلقين لا علاقة لهما بأي شيء خارجي عنهما[4]، فأصبح المكان – وفق النظرية النــسبية – لا

(1) انظر: محمد عبدالعزيز النجار: ضياء السالك إلى أوضح المسالك: ص 129.
(2) انظر: المرجع السابق، ص 95.
(3) ياسين النصير: إشكالية المكان في النص الأدب: ص 395.
(4) انظر: عبدالسلام بنعبد العالي: درس الابيستيمولوجيا: ص 164 – 165.

ينفصل عن الزمان، وهما معاً متصلان بالأشياء والأحداث والظواهر، لأن "العلاقات المكانية والزمانية مشتقة من التفاعلات المادية بين الظواهر والأحداث الفيزيائية"[5] .

هكذا أصبح لمكة دلالة ثقافية وتاريخية، مثلما أن لها ولكل مكان دلالات طبيعية وجغرافية ومادية.

لكن مكة تختص بثراء دلالي روحي وديني يضاف إلى دلالتها الإنسانية والاجتماعية ويؤسس لها، إذ يرد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾.[6]

إن تاريخ دلالة مكة يبدأ من رحلة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام إليها، حيث أسكن فيها زوجه هاجر وابنه إسماعيل، ثم بنى مع ابنه إسماعيل الكعبة المشرفة، ودعا الناس إلى الحج إليها[7]. وفي حديث البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما " أن إبراهيم عليه السلام جاء بها (= هاجر) وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء... الحديث"[8] .

هنا تتصل مكة بالمقدس الديني في الوعي الإنساني، ويبدأ تاريخها بدايةً تتصل الأرض فيها بالسماء إذ أمْرُ الله لنبيه إبراهيم عليه السلام، و إذ شريعة الله للناس اقتفاء لسيرة إبراهيم، وهي سيرة تستحيل فيها مكة من مكان مجرد إلى مكان زماني بسبب أحداث سيرته عليه السلام وسيرة زوجه وابنه، ومعجزة ماء زمزم، وسعي هاجر بين

(5) مجموعة من المؤلفين: المعجم الفلسفي المختصر، ترجمة: توفيق سلوم: ص 475.
(6) سورة آ ل عمرآن : آية 96.
(7) انظر: البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الأنبياء، الباب التاسع ــ وتفسير الآية لدى: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: 383/1.
(8) البخاري: المرجع السابق والموضع نفسه.

الصفا والمروة، والكعبة، والحجر الأسود، ومقام إبراهيم، والمزدلفة، ورمي الجمرات بمنى، وفداء إسماعيل بذبح عظيم.

هذه الأحداث، التي تصل مكة بوصفها مكاناً مجرداً بالزمان بوصفه حركة لا نتبينها بمعزل عن الموجودات والأشياء التي فعلها وحركها إبراهيم عليه السلام – تدخل بمكة إلى الكينونة والوجود أي إلى التاريخ، كما ترسم لها صورة معرفية وظلالاً وجدانية حافلة بالقداسة وندية بالمعاني الروحية والتعبدية.

ولا تنفصل هذه الكينونة عما امتازت به مكة في التاريخ القديم، بفضل دلالاتها المقدسة، من مركزية ثقافية واقتصادية واجتماعية هيأت لأهلها سلطاناً معنويّاً وماديّاً، ماتزال أدبيات اللغة العربية قبل الإسلام تحكي دواله وشواهده.

يقول ابن الفقيه:

"إن أهل مكة لم يؤدوا في الجاهلية إتاوة قط، ودانت لهم خزاعة وثقيف وعامر ابن صعصعة، وفرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحلِّ إذا دخلوا الحرم، وهم بعد أعز العرب، يتأمرون عليهم قاطبة[9].

ويقول أحمد بن فارس نقلاً عن إسماعيل بن أبي عبيد الله:

"كانت وفود العرب من حُجَّاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم... وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب"[10] .

(9) ابن الفقيه: كتاب البلدان (طبعة أوروبا): ص 18. نقلاً عن د. شوقي ضيف: العصر الجاهلي: ص 50.

(10) أحمد بن فارس: الصاحبي في فقه اللغة وسر العربية: ص 23.

وفي الأغاني: "كانت العرب تعرض أشعارها على قريش، فما قبلوه منها كان مقبولاً، وما ردوه منها كان مردوداً"[11]

وقد تجسدت مركزية مكة، مكانياً، في دلالة اللغة العربية على الجهات المكانية والجغرافية، على نحو ما نعرف عن (الشام) و (اليمن) ، ففي لسان العرب: "الشَّأم.. سميت بها لأنها عن مشأمة القبلة" و"المشأمة: الميسرة"[12] و "اليمَنُ: ما كان عن يمين القبلة من بلاد الغور"[13].

ولا ننسى على المستوى الإداري والاجتماعي، ما نشأ في مكة من فاعلية مدنية وحضارية ممثلة في التحاور والتشاور على نحو ما نعرف عن (دار الندوة). وهي فاعلية تجسد طبيعة المجتمع المدني الذي تتولد فيه الحاجة إلى التخطيط والنظام وابتداع آليات تحفظ عليه تماسكه وأمنه. وقد ذهب المستشرق (لامنس) Lammens في كتابه عنها إلى أنها كانت جمهورية كجمهورية البندقية، ووقف طويلاً عند نظامها التجاري المعقد، والاجتماع بدار الندوة الذي يشبه مجلس شيوخ مصغراً، ولم يكن يدخله إلا من بلغ أربعين سنة، ويختارون على ما يظهر تبعاً لثرواتهم وخدماتهم التي يؤدونها، وينظرون في شؤونها التجارية والدينية[14].

وتتواشج هذه الصور لمكة مع معانٍ وصور ذهنية حافلة بالأسرار والمعجزات التي تمنحها دلالة رمزية تجاوز المدلول المكاني إلى الثقافة، وتتخطى العقل إلى الوجدان، فالجاحظ – مثلاً – يفرد في كتابه "الحيوان" باباً بعنوان " ذكر خصال الحرم" يذكر فيه " إن الذئب يصيد الظبي ويريغه (= يطلبه) ويعارضه، فإذا دخل الحرم كف عنه" و "أنه لا يسقط على الكعبة حمام.. ما دام صحيحاً" و " إذا حاذى أعلى الكعبة عَرَقَةٌ (=جماعة) من الطير كاليمام وغيره، تفرقت فرقتين ولم يعلها طائر منها".

(11) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني: 21/ 206.
(12) ابن منظور: لسان العرب، مادة "شأم" : 12/315–316.
(13) المرجع السابق: مادة "يمن" : 13/462.
(14) انظر عن رأي لامنس د. شوقي ضيف: العصر الجاهلي: ص 50 – 51 وما يحيل إليه.

ويمضي ليذكر "أن المطر إذا أصاب الباب الذي من شق العراق، كان الخصب والمطر في تلك السنة في شق العراق، وإذا أصاب الذي من شق الشام كان الخصب والمطر في تلك السنة في شق الشام، وإذا عم جوانب البيت كان المطرُ والخصب عاماً في سائر البلدان".

و" أن حصى الجمار يرمى بها في ذلك المرمى، منذ يوم حج الناس البيت على طول الدهر، ثم كأنه على مقدار واحد".

ويضيف إلى ذلك "البركة والشفاء الذي يجده من شرب من ماء زمزم" و "شأن الفيل، والطير الأبابيل، والحجارة السجِّيل، وأنها لم تزل أمناً ولَقاحًا (=حرة) لا تؤدي إتاوة، ولا تدين للملوك، ولذلك سُمِّي البيت العتيق، لأنه لم يزل حُراً لم يملكه أحد" ويورد من الشعر القديم قول حرب بن أمية في ذلك:

أبا مَطَر هَلُمَّ إلى صَلاحِ *** فتكفيك النَدامى من قريشِ

فتأمَنَ وَسْطَهُم وتعيشَ فيهم *** أبا مطر هُديت لخير عيشِ

وتَنْزِلَ بلدةً عزَّتْ قديماً *** وتأمن أن يزورك ربُّ جيشِ[15]

وبقدر ما احتشد لمكة في الوجدان والخيال والذهنية القديمة من التاريخ والمعاني والصور، فإن تاريخ الدين الإسلام قد أضاف إليها معاني وصوراً وتاريخاً، وأمَدَّها بفيض من القيمة والدلالة التي اجتازت بها حدود دلالتها القديمة إلى الدلالة الإسلامية المشرعة باتجاه العالم والمفتوحة على الأعراق والجغرافية الإنسانية.

فقد كان في مكة ميلاد رسول الإسلام محمد ﷺ وكان فيها مبعث نوره، ومهبط الوحي عليه، وكان فيها سيرته الأولى، وسيرة الصدر الأول من صحابته (رضوان الله عليهم)، بما حفلت به من جهاد ومكابدة وعناء. وهي سيرة تغدو مكة، بوصفها مكاناً

(15) الجاحظ: الحيوان: 3/139-141. و "صلاح" في الأبيات اسم من أسماء مكة.

لها، دالاً من دوالها، يكتنز برموزها وصورها في غار حراء، وجبل النـــور، وغـــار ثور، والشعب، والبطحاء.. وسائر بقاع ومشاعر وأجزاء مكة.

2– الرمز – الصورة:

لم تعد مكة "وجوداً طبيعياً" بل "وجوداً ثقافياً" فهي سجل لذاكرة تاريخية، وهي ذاكرة تمنح مكة معاني ودلالات كثيفة وذات عمق وجداني جمعي يحل في الجماعـــة العربية والإسلامية محل الوعي بالذات الجماعية لها، ويرتب عليه جوانب جوهرية في تصوراتها لخصوصيتها وذاتيتها وهويتها، إذ نلمح، دوماً، ما يشد تلك الجماعة علـــى امتداد رقعتها الجغرافية وفضاءاتها العرقية والثقافية واللغوية إلى مكة، ويفعم خيالهـــا بالحنين إليها، فضلاً عن تمركزها في خارطة بنية الوعي بالمكان والزمان عندها، إنها مؤشر زمانها التاريخي وبوصلة الجهات.

هذا الوجود الثقافي لمكة من جهة غناه بالدلالة التي تجاوز الفرد إلى الجماعـــة والمكان إلى التاريخ والأرض إلى السماء، لا يكف عن إمداد وعينا بالصور والرموز التي تشبع وتغني الرؤية الإنسانية في تجربة كينونتها روحياً ومعنوياً، باستلهام ســـند الهداية والنور والعون والتوفيق والكرامة والإعجاز، وباستدرار سبل المكابدة والصبر والتضحية والبذل... وفق ذاكرة زاخرة بدوال يصارع الحق فيها الباطـــل، وتنـــازل الحقيقة فيها الزور، والعدل الظلم، ويستشرف العجز والضلال والخوف هَدْيَ الـــسماء ونور الوحي وأمنه، وفق شواهد مكانية في مكة ومشاعرها.

وهنا يغدو الشعر، بوصفه أحد تجليات الثقافة ومظاهر التدليل علـــى الـــذاكرة وتوليد كينونة الوعي الإنساني، باباً من أبواب القـــراءة للرمـــز والتـــأليف للـــصورة واستنطاقها. فليست مكة مدونة تاريخية أو جغرافية أو اجتماعية بقدر ما هي مدونـــة ثقافية وفنية يجلوها الشعر مثلما يجلوها السرد، وتؤلفها الكلمة بقدر ما يحققها الواقع.

وإذا كنت أخص في هذه الدراسة "الرمز الشعري" لمكـــة، فـــإنني لا أقـــصد، تحديداً، الرمز بمدلوله المذهبي الشعري،بل أتخطى ذلك إلى الرمز بمدلولـــه البـــسيط،

من جهة، الذي يتجلى حين "تتصل بعض عواطفنا بمناظر أو أشياء مادية معينة نتيجة لموقف لنا معها، أو واقعة ارتبطت بها... فتتحول هذه الأشياء والمناظر إلى مثيرات تذكرنا بمضمون تلك المواقف والوقائع"[16] وإلى الصورة الشعرية، من جهة أخرى، التي ينظر إليها عدد من النقاد نظرةً تقرنها بالرمز من زاوية قدرتها على الإيحاء، ووقوعها كمعادل لفظي له ذاتيته واستقلاله في المسافة بين المؤلف والقارئ[17].

3- المكان في الشعر:

حفل الشعر العربي برموز المكان وصوره منذ القديم، وتناثرت فيه الإشارة إلى أعلام مكانية وموضعية، وبدا تقصي الأشياء وتفاصيلها الحسية وعلاقاتها وجهاً من وجوه الحاسة المكانية في الوعي الإنساني، واقترن ذلك بمعان عميقة تتجاوز الدلالة على المكان في ذاته إلى الدلالة على الوجود الإنساني وهو يتأمل وحشته وغربته، أو يحن إلى الماضي ويتذكر الأنْس والدعة والألفة أو يقلق من علامات الإمحال والعدم والجفاف، أو يستشرف الخصوبة ويتطلع إلى الأمن... وكل ذلك دوال وجودية تتعالق مع أحاسيس الزمن والحياة والموت والعجز والفراغ الروحي، وتحتال على الذاكرة والوعي بما يشبعهما من المعرفة والصور التي تتخذ المكان ذريعة للقبض على زمن يتفلت، دوماً، من العمر.

ولا تنفصل، في هذا المعنى، دلالات وقوف الشعراء القدامى على الأطلال[18] ــ التي هي ناتج حياة بدوية لا تكف عن النقلة من مكان إلى آخر ــ عن دلالات الحنين إلى البلدان والمدن والعكوف على وصفها وبثها الأشجان أو رثائها في أعقاب

(16) د. محمد فتوح أحمد: الرمز والرمزية في الشعر المعاصر: ص 136.

(17) انظر عن ذلك آراء تي. إس . إليوت T.S.Eliot، وهولم T.E.Hulme وتندال W.Y.Tindall وغيرهم في المرجع السابق: ص 139 – 142 وما يحيل إليه من مراجع، وقارن د. مصطفى ناصف: الصورة الأدبية: ص 152 وما بعدها.

(18) انظر عن دلالة الوقوف على الأطلال، بوصفها علاقة مع المكان، د. عبدالقادر الرباعي: الصورة الفنية في النقد الشعري: ص 234، ويوسف اليوسف: مقالات في الشعر الجاهلي: ص 148.

الكوارث أو التغيرات الزمنية والاجتماعية التي يجد الاستقرار الحضري فيها وجهاً مشابهاً للأطلال في تلك الدلالة، مضافاً إليها دلالات المجتمع الحضري في البيوت المتطاولة، والسكنى الفاخرة، واختلاط أشتات الناس، والانفتاح على التجدد، وانعقاد الجماعة على ما يؤسس لاستقرارها، واتصال ذلك بمؤسسات العلم والتعليم، واحتراف المهن والأشغال المختلفة، وما ينشأ عن ذلك من تولد مستمر لحاجات إنسانية لا تكف عن الترقي عن الضرورة والكفاف... إلى غير ذلك من مواصفات مدنية، ينخرط المكان، في ضوئها، في سياق الفاعل، أو يستحيل بها إليه، مجاوزاً دلالة الحياد والتجرد والفراغ.

وقصيدة ابن الرومي – مثلاً– عن البصرة بعد خرابها في ثورة الزنج (257هـ) [19] أحد الشواهد الشعرية التي نجد المكان فيها وقد تغشاه الحزن والتلهف والحسرة، واستبطنه الذعر والفزع، واستحالت مشاهد الخراب فيه إلى دوال رمزية على الحدث تكتنز بالتغير والتحول الذي تتولد منه لماضي المكان معاني المجد والجلال والجمال والألفة والطمأنينة، وهي معانٍ لم يكن لها أن تتولد دون الحدث الذي قذف زمان المدينة إلى هوّتِه بما أفضى إلى القلق المكاني حيث ارتجاج العلاقة مع الزمن وانقطاع متصله.

ومثل ذلك همزية عبيد الله بن قيس الرقيات التي يستهلها بقوله:

أقفرت بعد عبد شمس كداء *** فكدي فالركن فالبطحاء[20]

إذ يهيمن على المكان فيها معاني الإقفار والوحشة والخلو من الأنيس، وذريعة هذا المعنى وبطانته الحسية قائمة في الرؤية إلى الزمن والإدراك للتحول والتغير.

(19) انظر: د. شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني: ص30 والقصيدة في ديوان ابن الرومي.
(20) انظر: د. شوقي ضيف: العصر الإسلامي: ص 295 – 296 والقصيدة في ديوان ابن قيس الرقيات.

هكذا يبدو المكان في الشعر، دوماً، مقترناً بالزمان، إذ هو روحه، وعلاقة الزمان بالمكان، كما رأى صموئيل الكسندر (ــ 1938م Samuel Alexander)، كعلاقة الجسم بالروح، فلا يكون الأول إلا بوجود الثاني... وإذا استقل المكان عن الزمان كان ميتاً لا حياة فيه[21] . كما يبدو المكان في الشعر، أيضاً، قريناً للمجتمع إذا هو الأساس الذي يمنحه قيمته، سواء تعلق الشعر بمكان الحبيبة، أو بمكان الأهل والأسرة والوطن، أو بما تألفه النفس وتستأنس به وتأمن، ولهذا قال دوركايم (1917م Emil Durkheim): "إن المجتمع هو الأساس في تحديد مفهوم المكان"[22] .

ومعنى ذلك أن موضوعات الحديث عن المكان في الشعر التي تكرر الحنين إليه، أو التذكر لماضيه ورموز تأريخه، أو تعكف على وصف أشيائه وتفاصيل أجزائه، أو تنفذ إلى امتيازاته الدينية، أو تتذرع به إلى وصف أهله وما تربط الشاعر به من روابط، أو تتغنى بمواضعه وتطلق مواجدها الروحية في بقاعه، أو تستعيد به ذكريات الطفولة والشباب، أو مجد الماضي ورغد عيشه واطمئنانه.. كل تلك الموضوعات المكرورة ترتب المكان على الزمان والجماعة، ومن ثم تتوسل به في الشعر لإدراك الوجود والقبض عليه ومَوْضَعَة مُجَرَّدِه في المحيط المحسوس، بذات القدر الذي تجرد فيه هذا المحسوس المكاني وتطلقه من أسر المادة أي تصيره زمناً... في حركة عدول وانزياح للصورة والرمز تحيل المكان إلى زمان والزمان إلى مكان، فلا نرى الأشياء ومحيطها ومواضعها إلا في سياق التبدل والتحول، مثلما لا نرى التبدل والتحول والصيرورة إلا مشهوداً في الأحداث ومدللاً عليه بالمكان والمواضع والأشياء...

هذا التصور، للمكان – إجمالاً – في الشعر، يبدو بمنزلة خلفية ضرورية لتوليد أسئلة البحث عن مكة في الشعر، وسبل تصويرها وترميزها شعريّاً. فما هي

(21) صموئيل الكسندر: المكان، الزمان، الألوهية: 920/3 وما بعدها.
(22) نقلاً عن: قباري محمد إسماعيل: علم الاجتماع والفلسفة: 55/2.

موضوعات الشعر المكرورة في تناوله لمكة؟ وكيف تتلاقى دلالات مكة عند الشعراء؟ وما الذي يخصص صورتها في الشعر عن غيرها من الأماكن والمواضع؟ .

4- مكة في الشعر:

اختص غير شاعر مكة بقصيدة أو أكثر من شعره، فضلاً عن دخول مكة في قصائد أخرى تتخذ من الحج، أو الهجرة، أو ميلاد الرسول ﷺ، أو تاريخ الإسلام موضوعاً رئيساً لها. ودلالة ذلك واضحة في تمثيل جماعية مكة على مستوى المعرفة والتصور، وعلى مستوى الوجدان والاعتقاد والمشاعر، وعلى مستوى الرمز والثقافة. وذلك يخالف ما اعتدناه من الإحالات المكانية في الشعر التي تجسد علاقة خاصة مع المكان، على نحو ما نعرف –مثلاً– عن " سقط اللوى" و" الدخول" و" حومل" و"توضح" و"المقراة" ...الخ في معلقة امرئ القيس، قديماً، و"جيكور" في شعر بدر شاكر السياب، حديثاً..

هذه الجماعية الفردية، أو تلك الفردية ذات الملامح الجماعية هي ما يجعل قصائد مكة تداول مكرورة من الموضوعات والصور الرموز مشفوعة بنشاط روحي وشهية مفتوحة إلى الإعادة والابتداء منها ولها دون ملل. إنها تجتمع على حنين جارف إليها وعشق مفعم بالمعاني الروحية والوجدان المنطلق، وتداول زمناً لا يشبه الزمن حيث الكثافة والتداخل والتركب والعمق، وتعدد بقاعها وتحصي مواضعها ومشاعرها وأرجاءها، وتفتتن بأجوائها الاجتماعية والإنسانية في مناقلة بين الظرف ومحتواه والمكان وساكنيه، وتستشعر قدسيتها التي تعلو بها على غيرها من الأماكن، وترى فيها نقطة الالتقاء بين السماء والأرض ومبعث النور والهدى والجة إلى التاريخ وغائصة إلى أعماق دلالة المكان الكونية، وتتغنى بأمنها وبَرَكتها وأجواء السلام والتعبد والطهر والصلاح فيها، وتستلهم القوة والوحدة التي تستدعي الرثاء لحال المسلمين والشكوى من الفرقة والتصارع والضجر من الضعف والتخلف..

وسأحاول عرض أبرز هذه الموضوعات، وقراءة صورها ورموزها، فيما يأتي:

1- مكة مدار العشق والحنين:

يقول طاهر زمخشري[23]:

كلمـــا نـــاح طـــائر فـــوق أيـــك *** كان لي من نواحـــه تـــذكيرُ

فترامـــــت خـــــوافقي أغنيـــــاتٍ *** من فؤادٍ برجعهـــا مخمـــورُ

لحمـــى البيـــت عنـــد أكـــرم وادٍ *** غير ذي الزَّرْعِ وهو روض

للقداســـات فـــي ذرى مهـــبط الـــــ (م) فرقان وهو فيض وفيـــر[24]

إننا هنا أمام حنين وشوق وتلهف لمكة، وينفعل الشاعر لهذه المعاني في صـــورة النواح الذي يغدو الطائر طرفاً فاعلاً ومفعولاً له ضمن مثلث العلاقة الذي يأخذ ركنيه الآخرين من الشاعر ومن مكة. وهي صورة تمثل ذلك المعنى في جريـــان مـــستمر باستمرار نواح الطائر الذي يتخذ دلالة عموم وإطلاق لا تعيِّنه في زمن ولا تحده فـــي واحد. كما تمثله في دوال التكرار المنتظم الذي تصنعه الأغنيات المرجعـــة. ولـــيس الطائر، هنا، مجتلباً قسراً لافتعال النواح بل هو جزء من صورة التمثيل لمكة وحمامها وطيورها الآمنة، وإذا كانت الطيور تستدعي الأيك والخـــضرة وتـــدل علـــى الأمـــن والسلام في ترابط مع مخزون الثقافة والوعي الذي يدلل بها، أبداً، على ذلـــك، فـــإن

(23) طاهر زمخشري: ولد بمكة المكرمة عام 1332هـ/1913م، ودرس بمدرسة الفلاح، عمل في عدد من الإدارات الحكومية، أصدر تسعة عشر ديواناً، وقد كتب الشعر بشكليه: العمـــودي و الحـــر (شعر التفعيلة)، كما كتب القصة، و أصدر مجلة للأطفال استمرت نحو خمس ســـنوات، وكـــان يقـــدم برنامجا إذاعيا للأطفال ومنه اكتسب لقباً شهيراً له في السعودية هو: (بابا طاهر)، وقد نال فـــي عـــام 1404هـ/1984 جائزة الدولة التقديرية للأدب، وعانى الشعر والعقل والجنون، إذ تعرض في فترة من حياته لأزمة نفسية وعصبية، وقد كتب عن شعره عدد من النقاد والأدباء، وهناك أطروحة للماجـــستير، نالت بها الباحثة: مريم بنت سعود بوبشيت، درجة الماجستير من جامعة القـــاهرة، بإشـــراف د. عبـــد المنعم تليمة، وعنوانها " شعر طاهر زمخشري" ، توفي عام1407هـ/1987م (د. عبد الله باقـــازي: مظاهر في شعر طاهر زمخشري: ص5-7)

(24) طاهر زمخشري:ديوان على الضفاف: ص 475.

صورة مكة في الأبيات تركز قدسيتها وروحانيتها ونضارتها، فهي "حمى البيت" و"أكرم واد" و" روض نضير" و"مهبط الفرقان" و"فيض وفير". وكما تتجاوب هذه الصورة مع الطائر من حيث التلازم بين الطيور والحرم، والطيور والرياض النضرة، فهي تتجاوب مع الأغنيات المرجعة ، فيتداعى ذلك بأصوات المصلين والطائفين وحجاج مكة وعمارها وهي ترجِّع التلبية والدعاء وتلهج بذكر الله وحمده والتسبيح له، في اتصال وثيق بين الصوت والشعور والقلب واللسان..

وإذا كان في الحنين جوع إلى الألفة وتوق إلى الأمن والاطمئنان والاستقرار المكاني، فإن صورته التي بناها طاهر زمخشري، في الأبيات، تبدو بما وفره لها من عناصر، وبما ركبَّه لها من مجموع قادرة على الاستقلال عن الشاعر، لتحل في المسافة بينه وبين القارئ (أي قارئ) مشعة بالتوق واللهفة والتطلع إلى قدسية مكة وأسرارها الروحية الدينية، وكاشفة عن علاقة المحبة لها التي تستبطن النفوس استبطاناً يعلقها بها ويجذبها إليها كما تجذب المعشوقة عاشقها، وهي معشوقة ذات حسن دفع محمد حسن فقي [25] إلى الوقوف عنده راسماً له عدداً من الصور والعلاقات الرمزية، في مثل قوله:

أنت عندي معشوقة. ليس يخـ (م) زي العشق منها ولا يفل

ما أباهي بالحسن فيك... على كثـ (م) ـرة ما فيك من مغان تشوق

(25) ولد بمكة المكرمة سنة 1332هـ/1912م، ودرس بمدرسة الفلاح بمكة، عمل مدرسا بمدرسة الفلاح نفسها، إلى أوائل عام1351هـ (1932م) فأُوكلت إليه رئاسة تحرير صحيفة " صوت الحجاز" التي تطورت إلى صحيفة " البلاد السعودية" في الوقتَ الراهن، ثم موظفاً في وزارة المالية، وعين سفيراً للمملكة في إندونيسيا عام 1374هـ/ 1955م, وأخيراً أحيل إلى التقاعد بناء على طلبه، حصل على عدد من الجوائز والأوسمة (جمعية الثقافة والفنون، دليل الكاتب السعودي: ص122) وتوفي في 1425/8/19هـالموافق2004/10/3. شاعر غزير الإنتاج، وتغلف شعره مسحة من الحزن العميق والألم الرومانسي، صدرت دواوينه مجموعة في الأعمال الكاملة (سبعة مجلدات كبيرة) ، وتتويجاً لإبداعاته الشعرية، أنشأت مؤسسة يماني الثقافية جائزة في القاهرة باسمه.

أنت قدس فليس للهيـــكل الفـــا (م) ني بقاء – كمثله – وســموق
كل حسن يبلى . وحسنك يـا مكــ (م) كــة – رغم البلــى– الفتــي
.... *** ......
رب صخر في بطن واديك– يا مكــ *** ــة – يهفو إليه غصن وريق
لــست وحــدي متيمــاً فــالملاييـــ (م) ــن فــريق يمــضي فيــأتي
تتـــوالى عليـــك مـــنهم صـــبابا (م) ت فيـــصغي لهـــا الفـــؤاد
ليس فيك الدلال يوحي بــه الزهـــ (م) ــو ويغري به الجمال الطليق
لم تزهين؟ رب زهــو مــن الحــســ (م) ــن تجلى به علينــا العقــوق
وعتـــي مـــن الجمـــال... تحـــدا (م) ــه أســير.. بحبــه موثــوق
إن حـــسناً يكبـــل العقـــل والـــرو (م) ح لحـــسن – وإن أنـــال – (26)

إنها صورة تخرج بالعشق لمكة عما ألفناه من صور العشق ودلالاته، وتخــرج بمكة عما ألفناه من صور العشق للمكان والتعلق به، فالشاعر لا يعشق مكة لأزهارها ورياضها وجداولها واعتدال مناخها، ولا يعشقها بوصفها ظرفاً قيمته فــي محتــواه. وكما تخرج هذه الصور بالمعشوقة عن صورتها النمطية ومحورها الــدلالي، فإنهــا تخرج – أيضاً– بالعاشق عن مألوف دلالته وصورته، فهو لا يذل بهذا العــشق، ولا يضعف، وهو لا ينفرد به بقدر ما يجتمع مع الملايين الذين يزدادون تكاثراً في الزمن إذ تعقب أجيالهم أجيالاً وأجيالاً، والصلة بين معنى القدسية ومعنى الحسن تنتهي إلــى

(26) محمد حسن فقي: الأعمال الكاملة: 63/6 – 64.

نفي البلى والفناء عن حسن مكة، وإلى رفعه عن مستوى المواصفات الاجتماعية للحسن والجمال، لأنه مبرأ من الدلال ونقي من معاني القيد والأسر التي تكبل العقل والروح.

ويستبد عشق مكة بمحمد حسن فقي، فيحن إليها كما حن طاهر زمخشري، حنيناً تجلوه وترسمه صور مختلفة وعديدة تجتمع على موضعته شعريًّا بما يجعله موحياً لقارئه ومعدياً له بانفعاله وتداعياته، في مثل قوله في قصيدة أخرى:

أحن إلى مغناك رغم بعاده *** وإن كنت عن مغناك لست

وتهفو الحنايا مثقلات بهمها *** إليك إلى ذات السنا المتفرد

وما أنا إلا بلبل في خميلة *** ولكنني لولا الهوى لم أغرد

هواك الذي تصبو إليه نوازعي *** وتبقى به في لوعة وتوجد

أهيم بواديك اليبيس وأشتهي *** ببطحائه المثوى بلحد ممهد

ويمضي ليقول:

أمكة.. والحانون حولي على الحمى *** حماك.. كثير من ضعيف وأيد

يودون لو عاشوا هناك.. فتلتوي *** بهم عنك أرزاء الأسير المقيد

عطاش وذيدوا عن نمير مبرد *** فبل حشاهم بالنمير المبرد

فكم وامق مثلي.. وكم متطلع *** إليك هفا.. من خامل ومسوَّد

ولولا ظروف عائقات لأصبحوا *** وأمسوا بمغنى العز..مغنى التهجد[27]

(27) المصدر السابق: 1/ 88 – 89.

فالحنين، هنا، يأخذ طابع التكرار والتأكيد، عن طريق الإشارة إليه في كل بيت، والخروج بكل إشارة إلى تنويع مختلف من صفة الحنين وصورته، فهو حنين الشاعر إلى مغنى مكة، وهو حنين إلى البعيد، والشاعر الذي يصدر عنه هذا الحنين ليس مبعداً عنها لأن حنين المُبْعَد يرتبط بعلة خارجية ويزول بزوالها، ويبدو الحنين تلقائياً وتسلطياً حيث تهفو الحنايا مثقلات بهمها إلى مكة، وهو هواها المغرد في صوت البلبل، ونوازع الشاعر تصبو إليه، وتبقى في لوعة وتوجد، وفي ذلك معنى الاستمرار وصفة الديمومة. ويأخذ، من بعد، صفة الهيام وصورته التي تعلِّقه بوادي مكة اليبيس بما يدخره مثل هذا التعلق من سر كتيم ومعنى مجاوز لحسية الأشياء وجمودها، ويمتد التعلق إلى ما بعد الحياة فالشاعر يشتهي المثوى بلحد ممهد في بطحاء مكة.

وكما رأينا، من قبل، عشق الشاعر لمكة وقد خرج عن عادة العشاق بالإشارة إلى شراكته في عشق مكة للملايين واغتباطه بمشاركة غيره في عشق محبوبته، نجده، هنا، ينخرط بالحنين إليها في حنين الحانين الكثر الذين لا يحدهم جنس ولا توحدهم طبقة، فهم الضعيف والقوي، وهم الخامل والمسوَّد.. وذلك يعني أن الحنين إلى مكة لا يرتبط بمنفعة خاصة ولا تحتكره خواص اجتماعية، فهو لا يتسع لغير العلاقة الروحية التي تجاوز السطح إلى صميم الكينونة وباطنها العميق بما يكسر طوق الذات وحدود انغلاقها الوجودي باتجاه وحدة روحية تتلمس عطشها إلى التطهر والهداية وتتحسس قيودها المادية الحاجزة لها عن الأمن والاطمئنان الروحي.

ويغدو الهيام بمكة مرتكزاً ابتدائياً لمقاطع قصيدة طاهر زمخشري الشهيرة "إلى المروتين". إذ يبتدئ كل مقطع منها بالفعل "أهيم" الذي يولد مقاطع القصيدة توليداً يحيلها إلى تكرار وترجيع غنائي شجي لحكاية الهيام والشوق وهو يأسر الشاعر إلى مكة ومشاعرها وبقاعها، هكذا:

أهيم بروحي على الرابية *** وعند المطاف وفي المروتين

وأهفـــو إلـــى ذكـــر غاليـــة *** لدى البيـت والخيـف والأخـشبين

فيهـــدر دمعـــي بآماقـــه *** ويجـري لظـاه علـى الـوجنتين

ويـــصرخ شـــوقي بأعماقـــه *** فأرســل مـــن مقلتـــي دمعتـــين

.... ***

أهـــيم وقلبـــي بدقاتـــه *** يطيـر اشـتياقاً إلـى المـسجدين

وصـــدري يـــضج بآهاتـــه *** فيسري صـداها علـى الـضفتين

علـــى النيـــل يقـــضي ســـويعاته *** فيسري صـداها علـى الـضفتين

وخـــضر الروابـــي لأناتـــه *** تـــردد مـــن شـــجوه زفـــرتين

.... ***

أهـــيم وفـــي خـــاطري التائـــه *** رؤى بلـــد مـــشرق الجـــانبين

يطـــوف خيـــالي بأنحائـــه *** ليقطـــع فيـــه ولـــو خطـــوتين

أمـــرغ خـــدي ببطحائـــه *** وألمـــس منـــه الثـــرى باليـــدين

وألقـــي الرحـــال بأفيائـــه *** وأطبـــع فـــي أرضـــه قبلتـــين

.... ***

أهـــيم وللطيـــر فـــي غـــصنه *** نـــواح يزغـــرد فـــي المـــسمعين

فيـــشدو الفـــؤاد علـــى لحنـــه *** ورجـــع الـــصدى يمـــلأ الخـــافقين

فتجـــري البـــوادر مـــن مزنـــه *** وتبقـــى علـــى طرفـــه عبـــرتين

تعيـــد النـــشيج إلـــى أذنـــه *** حنيناً وشـــوقاً إلـــى "المـــروتين"[28]

فليس في القصيدة، إجمالاً، غير الحنين والشوق إلى مكـــة، ويمكننـــا أن نقـــسم جملتها الدلالية، فقط، على هذا الإسناد وعلى قيده، فالحنين والـــشاعر همـــا محمـــول الإسناد وحامله، ومكة هي قيد المحمول ومتعلقه. وامتداد القصيدة، بعد ذلك، لـــيس إلا تكراراً لهذه الجملة يستبدل دوالها ولا يستبدل دلالتها، وهذه الدوال الإبداليـــة للحنـــين والشوق تعتمد صور أفعال مضارعة تحيل الحنين إلى استمرار متجـــدد فـــي الـــزمن وتجسمه في أصوات وحركات ومشاهد يتجاوب فيها الشاعر ومحيطه المكاني، كما أن الدوال الإبدالية لمكة تعتمد أجزاءها وبقاعها ومشاعرها ومعالمها.. بما تحملـــه مـــن تنوع وتكثر وتأكيد يعادل صور الحنين ودواله المتكاثرة والمتعددة، وبذلك يغدو ذلـــك الاستبدال المتوالي في دورانه على محور التكرار لذات الدلالة إثراءً لفظيـــاً يموضـــع الحنين والشوق في المسافة مع القارئ خالقاً له حنينه الخاص وشوقه الشخصي، وكأننا بإزاء شوق وحنين لمكة القارئ، بأسرارها وذاتيتها وعمومها وكليتها التي تفرده بقدر ما تشركه مع غيره..

ولا تكف صورة مكة المعشوقة والحبيبة والأليفة عن الإلحاح على الشعراء جاذبة قصائدهم إلى موضوعة الحنين إليها وإعلان الشوق والعـــشق لهـــا، ليقـــول حـــسين عرب[29]:

(28)طاهر زمخشري: ديوان أغاريد الصحراء: ص 386 –387.

(29) ولد بمكة المكرمة سنة 1338هـــ/1919م ، وتخرج في المعهد العلمي السعودي بهـــا، وعمـــل محرراً بجريدة " صوت الحجاز"، وفي ديوان نائب الملك، وفي وزارة الداخلية، ثم عين وزيراً لـــوزارة الحج والأوقاف عام1381هـــ/1961م– 1383هـــ/1963م ، طبعت المجموعة الكاملـــة لـــشعره فـــي جزأين، (نبذة عن الشاعر، المجموعة الكاملة، ج1ص5).

عشقناك أطفـــالاً صـــغاراً وفتيـــةً *** وزدناك أشياخاً عظيم التوجد[30]

ويقول حسن القرشي[31]:

أمكـــــة فيـــــك انطـــــلاق الحنـــــين *** وفيك الشعور لمن قد شـــعر[32]

ويقول أحمد قنديل[33]:

كلمـــا قـــال قائـــل.. فـــي حنـــين *** هـــذه مكـــة العظيمـــة قـــدْراَ

جَاءَنـــا... جئتِنـــا تميـــسين فيـــه *** في جلالٍ.. ضـــمَّ المفـــاتن طُـــرًّا

في شـــتيتٍ مـــن المحاســـن لاحـــت *** بين ماضيك.. حاضراً مستمراً[34]

هكذا – إذن – نجد أن الحنين والعشق لمكة يمثل موضوعة شعرية مكرورة فـــي قصائد الشعراء، ومكرورة في القصيدة الواحدة بأكثر من صورة وعبارة. ولا معنـــى لذلك إلا أن مكة غدت صورة نفسية معبأة بالدلالة وفياضة بمعانٍ تنفي عنهـــا صـــفة المكان الجامد والمحايد. إنها حية فهي معشوقة، وهي مؤثثة بالقداســـة والألفـــة التـــي تجعل النفوس مشوقة إليها وحانة إلى بطاحها. وبذلك يستحيل الحنين والعشق الشعري لها إلى ممارسة رمزية للتطهر لا تقصد الحنين والعشق بمعناهما التعبيري في تلوُّعـــه

(30) حسين عرب: المجموعة الكاملة:1/102–104.

(31) ولد بمكة المكرمة سنة 1344هـ/ 1925م ودرس بالمعهد العلمي السعودي، وحـــصل علـــى الإجازة في الآداب، قسم التاريخ، من جامعة الرياض، عمل في وظائف عـــدة، منهـــا فـــي الإذاعـــة السعودية، وفي وزارة المالية، كما عمل سفيراً للسعودية في عدد من البلدان. أصدر عدداً من الدواوين تضمها الآن المجموعة الكاملة – ديوان القرشي (نبذة عن حياة المؤلف، ضمن مجموعته الكاملة المشار إليها).

(32) حسن القرشي: ديوان الأمس الضائع:ص 598.

(33) ولد بجدة سنة 1330هـ/ 1911م ودرس في مدرسة الفلاح، وعين فيها أستاذاً عنـــد تخرجـــه فيها، رأس تحرير جريدة " صوت الحجاز" ، وعمل في وزارة المالية، ثم تقاعـــد واشـــتغل بالأعمـــال الحرة، من دواوينه المطبوعة " أغاريد" و "أصداء"و " أبراج" و "نار" و " مكتي قبلتي" توفي فـــي عـــام 1399هـــ /1979م.(جمعية الثقافة والفنون، دليل الكاتب السعودي: ص25).

(34) أحمد قنديل: مكتي قبلتي: ص 14 –15.

بالفقد وتوقه إلى السكنى بقدر ما تقصد ممارسة الحنين والعشق لمكة على نحو يجعلها لذة روحية للتسامي والنقاء، خصوصاً ونحن لا نجد، إجمالاً، في أبيات وقصائد الحنين تلك ذكراً لأهل أو جيران أو حبيبة أو ذكريات شخصية أو جسدية تتنزل مكة بموجبها منزلة الوسيلة إليها والظرف لمحتواها.

2- الفضاء الروحي والمعاني الدينية:

وتتصل موضوعة الحنين والعشق لمكة في الشعر بالفضاء الروحي وما يمثله من معانٍ دينية ونفسية ألح الشعراء على ذكرها والتغني بدلالاتها على نحو يفقد المكان شيئيته ويصله بالروح في تدفقها وابتهاجها ولذتها التي تتبادل مع قداسة وطهر مكة معاني الصفاء والأمن والري ودلالة التلاقي الإيماني وهو يشد المجموع المتنوع بأعراقه ولغاته وجهاته باتجاه واحد في نزوع خالص إلى الخير والرضوان والمغفرة ولَهَجٍ شغوف بالذكر والتسبيح والصلاة وأداء الشعائر لتتكسر قوقعة الفردية المثقلة بالوحدة والغربة، وتُفَضّ أغلال المادة وآلية الجسد، ويندي الضمير بالصلاح والتحرر والنقاء مجاوزاً إلى نور السماء، ومشرئباً إلى وجود أكمل وأدل على حياة مطمئنة لا تقلق وعزيزة لا تذل.

وهنا نجد الشعراء يتداولون عدداً من الثيمات التي ترمز إلى فضاء مكة الروحي ومعانيها الدينية وتدلل على صورتها الذهنية والاعتقادية المجللة بالقداسة والمتصلة بالسماء، ومن أبرز هذه الثيمات والصفات المكرورة، ما يأتي:

أ – الحرم الآمن:

الأمن إحدى أبرز صفات مكة، وهي صفة تأسس عليها وجود مكة منذ انتقلت إلى التخصيص والتعريف المكاني بوفود الخليل إبراهيم عليه السلام وزوجه وابنه إليها، ودعوته لهما فيها: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من

الثمرات...﴾[35]. ودرجت الأجيال على الوعي بهذه الصفة وتوارث الإحساس بها، وجاء تقرير الإسلام لها وتأكيده معناها مدداً تشريعياً لحرمتها وتمكيناً للطمأنينة والاستقرار الروحي والوجداني فيها. ولهذا أصبحت مكة رمزاً للأمن وأصبح الأمن مقتضى إحالة إلى مكة التي وهبته من التصورات الكلية والامتداد التاريخي غنى دلالياً وتفرداً رمزياً يمتد من الإنسان والحيوان إلى النبات ومن أمن الخوف والاعتداء إلى أمن الغذاء وطمأنينة الروح، فقال تعالى ممتناً على أهل مكة بهذه النعمة ﴿فليعبدوا رب هذا البيت* الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾[36].

وقد سجلت الذاكرة الثقافية العربية نصوصاً عديدة تشير إلى هذا المعنى، وتحيل إلى وعيه الشائع بقدر ما تسهم في إشاعته والتمكين له. ففي الأمثال، يقول الناس: "آمن من حمام مكة، ومن غزلان مكة"[37] . وعن هذه الموضوعة عقد الجاحظ فصلاً في الحيوان جمع فيه أبياتاً عديدة من الشعر الجاهلي والإسلامي والأموي، تشير إلى أمن مكة، وتصور ذلك من خلال أمن الحمام والغزلان وتجاورها مع الناس دون أن يمسها أحد بأذى [38]و أورد في البيان والتبيين ــ أيضاً ــ بعض أبيات من الشعر العباسي للتدليل على ذلك [39] .

وحديثاً تداول الشعراء صفة "الأمن" في إشارتهم إلى مكة، يقول حسين عرب:

أشاد بك الإسلام طوداً ممنعاً *** تناهى إليه كل صرح مطود

تأمن فيه الوحش والطير والورى *** فلا صيد فيه أو شراك لمصيد[40]

ويقول طاهر زمخشري:

---

(35) سورة البقرة: الآية (126).
(36) سورة قريش: الآيتان (3 –4).
(37) الجاحظ: الحيوان: 192/3.
(38) المرجع السابق: 193/3.
(39) الجاحظ: البيان و التبيين: 176/1.
(40) حسين عرب: المجموعة الكاملة: 108/1 – 109، وانظر ــ أيضاً ــ 96/1.

بلاد أمـــن حمـــى المعبـــود معقلهـــا *** وزادها الأمنُ بالتحريم إعظامـــا

بحرمـــة لـــم تـــزل والله يحرســـها *** وبالمشاعر زادت منه إكراما ً[41]

والملاحظ، هنا، أن الشعر لا يقتصر في إشارته إلى أمن مكة علـــى حرمتهـــا الدينية بل يصل ذلك بمعاني الطهر وأجواء العبادة والتقوى، بحيث تحتـــضن صـــورة مكة، عبر هذه الموضوعة، معاني روحية ونفسية تنم عن العلاقة مع الداخل فوق ومع الإشارة إلى أمنها بوصفه علاقة خارجية بين الناس من جهة وبينهم وبـــين المكـــان وأشيائه وكائناته من جهة أخرى.

ب – أجواء العبودية اللذيذة:

يحتشد المؤمنون في مكة تقرباً إلى الله تعالى، فتلهج ألسنتهم بالذكر والتـــسبيح والتكبير، وتتردد أصداء التلبية بين جنباتها، وهم مبتهجون بالطاعة متطلعـــون إلـــى الأجر والمثوبة، وتواقون إلى المغفرة والرحمة. وتتدفق بهم مكة في نشاط وأريحيـــة وعزم لتراهم في سجودهم وركوعهم وسعيهم وطوافهم وتـــنقلهم هنـــا وهنـــاك لأداء الشعائر، فلا تخطئك اللذة التي ترف على قسماتهم، والمسرَّة التي تنطق في عيـــونهم. وهنا يجد الشعر في المكان رؤى تجاوز الجسد إلى الروح، فتستكنه هذا الأفق اللذيـــذ، على النحو الذي نجده في قول طاهر زمخشري:

ومن مكارمهـــا صـــوت ســـرى فـــإذا *** تجـــاوبٌ ذاع بـــين النـــاس إلهامـــا

صوت مـــدى الـــدهر غرِّيـــدٌ ليلهمنـــا *** معنـــى فهمنـــاه أعرابـــاً وأعجامـــا

معنـــى مـــؤدَّاه أن الخيـــر منتهـــل *** بين (الحطيم) وبين (الحِجر) قد قاما

ولم يرد حوضَهُ المثلـــوج غيـــر تقـــي *** يقـــضي الليـــالي صـــواماً وقوامـــا

(41) طاهر زمخشري: ديوان أنفاس الربيع: ص 300.

يصوم لا عن لذيـذ الـزاد فـي ورع *** عنه ولكن عن الفحشاء قـد صـاما

فعـاد أنقـى مـن الأضـواء مخبـره *** قد اكتسى في ابتغاء الأجر إحرامـا

وقـد توجـه شـطر البيـت مبـتهلاً *** قضى على الشر إخماداً وإلجامـاً[42]

إن إقبال الناس على مكة، كما نرى في الأبيات، لا يمثل حركة آلية ونقلة جسدية ذات معان دنيوية وحسية، خاصة ونحن نعلم مشقة ذلك منذ القدم، وأن مكـة ليـست منتجعاً سياحياً على مستوى الجغرافية، طبيعة ومناخاً، وهنا يلمـح الـشاعر الـصفة الطوعية الاختيارية في إقبال الناس على مكة مُرْجعاً ذلك إلى ما أُلهمتْه نفوسهم مـن خيريتها التي تضمنها ذلك الصوت الساري في الآفاق في شكل أغرودة، كما تصورها الشاعر، باقية مدى الدهر. وهو يحيل، في ذلك، إلى دعوة الحج التي أذنها أبو الأنبياء إبراهيم الخليل (عليه السلام) فذاعت بين الناس وفهمها العرب والعجـم بمـا يجـاوز منطق العقل، ويتحدى المواضعات ومألوف التاريخ والاجتماع البشري.

يورد ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم.. فـي تفسير قوله تعالى لإبراهيم:﴿وأذِّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كـل ضـامر يأتين من كل فج عميق﴾ [43]. ــ "أن إبراهيم قام على مقامه وقيل على الحجر وقيـل على الصفا وقيل على أبي قبيس وقال يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه فيقال إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجـاء الأرض وأسـمع مـن فـي الأرحـام والأصلاب وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة لبيك اللهم لبيك"[44]

(42) المصدر السابق والموضع نفسه.
(43) سورة الحج: الآية (22).
(44) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: 216/3.

هكذا تتصل مكة، في أذان إبراهيم بالحج، بالإعجاز، حيث الخرق لناموس الواقع وعادات الوعي بالأشياء، مثلما اتصلت به في بئر زمزم، والحجر الأسود، والطير الأبابيل، والوحي، وبيت العنكبوت.. وغيرها. ويأتي الشعر ليستبطن هذه الروح ويصدر عنها مفارقاً ظاهر المكان وسطوح أشيائه إلى عمق الوعي بها، فالخير لا يبقى دلالة معنوية مجردة بل يستحيل إلى "منتهل" له تعين مكاني، وهو "حوض مثلوج" بحيث يستدعي تلهف النفوس عليه والولع به أن نلمح صفتها الحرى والعطشى إلى ما تبترد به بكل ما تؤول بنا هذه الصفات إليه من تجسيد وتجريد تمتزج فيها الحسية والمعنوية امتزاجاً يوحدهما في وجود له صفة المحسوس المجرد أو المجرد المحسوس الذي ينتقل بالمؤمنين إلى صفة (الأضواء) منهياً صفاتهم الجسدية برغائبها الطينية والحيوانية وهي "الشر" وقد أُخمِد وأُلجِم. أي أننا أمام صياغة رمزية للذة العبادة تغوص بنا على الباطن النفسي العميق في تفاعله مع المكان.

وقد وجد الشعراء في أنواع العبادة وشعائرها مادة لفظية للإشعاع باللذة الإيمانية عبر التفاعل مع مكان العبادة الخاص وهو (مكة)، في مثل قول حسين عرب:

فإذا ما نظرت للكعبة الغر (م) راء فاسجد، لفاطر الأكوان

فهنا بيته، وهذا حماه *** فاز فيه الحجيح بالغفران

.... *** ....

قد أطافت به الخلائق، والتفـ (م) فت بأطرافه، كعقد الجمان

والمنارات حوله شامخات *** رجَّعت في السماء صوت الأذان

والتسابيح والتراويح نشوى *** وجنى الجنتين منهن دان[45]

(45) حسين عرب: المجموعة الكاملة : 96/1.

وقول طاهر زمخشري:

خيـــر وادٍ بـــه القداســـة تختـــا *** ل وفـــي العُـــدْوَتَيْن نَـــوْرٌ ونُـــورُ

وهو مهـــوى النفـــوس يهفـــو إليـــه *** كـــل قلـــب برحبـــه يـــستجيرُ

كلمـــا هاجـــه ادكـــار الخطيئـــات *** ونـــادى محـــا الخطايـــا الغفـــورُ

وإلـــى قُدْســـه تُقـــاد الـــضحايا *** وإلـــى رَحْبـــه تُـــساق النُّـــذُورُ

والمحاريـــب فـــي حمـــاه ظـــلالٌ *** والقداســـاتُ فـــي مـــداها زهـــورُ

والتـــــسابيحُ بالمهابـــــة شـــــدوٌ *** والبشاشات في صـــداها عطـــورُ[46]

فالأبيات ، هنا، تعمد إلى التسمية لبعض أنواع الذكر وشعائر العبادة، كالسجود، والطواف، والأذان، والتسبيح، والتراويح، والاستغفار، والأضحية.. لترتبها على مكة التي لا تنزل منها منزلة ظرف الاحتواء لها، فقط، بل ظرف الفعل لها. فتبدو، فيه، تلك العبادات، كما تصورها الأبيات، مشعة بالجمال والجلال حيث الطواف كعقد الجمان، والأذان ترجيع للذكر يتصاعد في السماء، والتسابيح والتراويح نشوى وقد دنت منهن الجنة، والمحاريب ظلال، والقداسات زهور، والذكر شدو، والبشاشات عطور... بما يجلو المعاني الروحية في التفاعل مع مكة مجلى الحس: بصراً، وسمعاً، وشماً، وذوقاً، على نحو يصوغ لمكة من العبادة صورة رامزة للبهاء ومفعمة باللذة التي تعلو على المألوف والمبتذل من معاني البهاء واللذة.

جـ – مبعث النور:

تأخذ مكة، من خلال موضوعة الرسالة والوحي والبعثة النبوية، في الشعر والثقافة العربية والإسلامية – مداراً رمزيّاً لاتصال الأرض بالسماء، فلا نتصور مكة

(46) طاهر زمخشري: ديوان (على الضفاف): ص 477.

دون هذا المعنى أكثر من مكان لا يتميز من سواه، ولهذا لا تمثل مكة قيمة جمعية إلا من الزاوية الإيمانية بشرطها الديني والتعبدي وبذاكرتها التي تتنزل مواقعها ومشاعرها شواهد نورانية فياضة بالقداسة وزاخرة بدلالاتها السماوية حيث سيرة إبراهيم وإسماعيل وسيرة محمد (عليهم الصلاة والسلام) وقد تنزل الوحي في بقاعها وشع منها مبتدأ نوره الهادي للعالمين.

وفي هذا المدار، تقوم مكة، شعريّاً ، في مقام الزمان الوضئ، ويتصور الزمان في صورتها فهي ناطقة به ودالة عليه، بوصفها مكان الحدث وفضاء بنيته التاريخية، وتمضي قصائد مكة إلى تكرار هذه الموضوعة، فيقول حسن القرشي:

تفتق عن راحتيها الصباح *** وشعشع في شفتيها القمر

وأزهت بها الشمس فوق البطاح *** وجن بها الليل حلو الصور[47]

ويقول حسين عرب:

قف بأم القرى، لمجد الزمان *** قد تلاقى فيها بمجد المكان

موكب الروح والملائك فيه *** وسنا الأنبياء في مهرجان

ألق الذكر فيه من ألق الفجـ (م) ـر وسحر الرؤى كسحر الجنان

وحراء، وزمزم، والمصلى *** ومنى، والمقام، والمروتان

والمحاريب والمشاعر كون *** ناطق بالتقى وبالإيمان[48]

(47) حسن القرشي: ديوان (الأمس الضائع): ص 566.

(48) حسين عرب: المجموعة الكاملة: 1/ 95، وانظر أبياتاً أخرى يذكر فيها (جبل النور) و(غار حراء)ونزول القرآن الكريم وبعثة الرسول (ص): 1/98-99.

ومثل ذلك قصيدة لمحمد حسن فقي يصف فيها انبعاث النور في مكة وميلاد الرسول عليه السلام ونخبة الشجعان من صحابته الذين أشعوا منها بالنور إلى كل مكان(49). وأخرى لطاهر زمخشري يتخذ فيها جنبات مكة وأمكنتها المختلفة مادة لقراءة أمجاد الماضي واستدعاء أحداثه وذكرياته الممتزجة بالنور والمتصلة بالسماء(50).

هكذا يحيل الشعراء مكة إلى صورة للزمن الماضي بأحداثه الخارقة التي غيرت التاريخ، وهو تغير يرتكز على نزول الوحي وبعثة الرسول ومن أحاط به من المؤمنين، ومن ثم تغدو صورة مكة في الأبيات متعالقة مع النور ودواله المتعددة التي تأتي من الصباح، والقمر، والشمس، والضياء، والسنا، والألق،والفجر.. الخ وتستحيل إلى حياة يتفتق النور عن راحتيها ويشعشع في شفتيها ويفيض وينتشر منها، فتزهو بالمجد، وتتصل بالغيب، وتنطق بالإيمان، وتمور بالإحساس.

إن حديث الشعر عن مكة، هنا، ليس حديثاً عن المكان بقدر ما هو حديث عن الزمان، لكنه ليس زماناً مطلقاً بل متعين في التاريخ ومخصوص في التصور، ومن هنا يغدو زماناً مكانياً مثلما يغدو المكان زمانياً. فتستحيل مكة إلى حدث بما تتضمنه بنية الحدث من دلالة مكانية قائمة في فعليته وفاعليته ومفعوليته ومن دلالة زمانية قائمة في حركته التي تؤشر على الوقت وتحيله إلى علامة فارقة في بياض التاريخ، ولهذا يعدد الشعراء الأماكن ويسمون البقاع والمشاعر المكية من منطلق الصورة الزمنية التي تترامى أبياتهم إلى إحلالها في المكان أو إحلال المكان فيها، لتغدو حراء، زمزم، المصلى، منى، المقام، المروتان، المحاريب، المشاعر، جبل النور، النجوم، الروابي، الجبال، الخيف، الدروب، الصحاري، والرمال.. الخ – أحداثاً لا تؤشر على المكان بقدر ما تؤشر على الزمان وتتموضع فيه.

(49) محمد حسن فقي: الأعمال الكاملة: 1/ 86 – 87.
(50) طاهر زمخشري: ديوان (على الضفاف): ص 475 – 476.

3- أم القرى:

تأخذ مكة في الشعر دلالة تفضيلية على غيرها من البلدان والأماكن، وهي دلالة تحيل إلى الصورة الذهنية التي تتبوأ مكة فيها بموجب النصوص القرآنية والنبوية والتاريخية موقع المركز والأولية، فأول بيت وضع للناس فيها، وهي قبلة المسلمين ومحجهم، وتاريخها منذ القديم ناطق بهذه المركزية في المستوى المدني، تجارة وثقافة واجتماعاً وسياسة، وقد سماها القرآن الكريم "أم القرى" لهذه الأسباب، حيث يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾[51]. " وسميت مكة (أم القرى) لأنها مكان أول بيت وضع للناس ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم ولأنها أعظم القرى شأنا"[52]

ونجد تفضيل مكة على غيرها مبثوتاً بصيغ مختلفة في كثير من القصائد، الأمر الذي يجعل له صفة الموضوعة المكرورة التي تجاوز بالدلالة الفرد إلى المجموع وإلى الثقافة، مختصرة النصوص والتاريخ، ورامزة إلى ما تدخره من أسرار مكة وصورتها العقائدية.

يقول محمد حسن فقي:

مكتي أنت لاجلال على الـ (م) أرض يداني جلالها أو يفوق[53]

ويقول:

قد تركت البريق للبلد الـ (م) خامل ماذا يجدي عليك البريق

وتمخضت عن فخار طوى الـ (م) أرض وما أحدبت عليك العروق

(51) سورة الأنعام: الآية (92).

(52)جار الله الزمخشري: الكشاف: 35/2. وفي الحديث الشريف أن الرسولﷺ ، قال مخاطباً مكة: "أنت أحب البلاد إلي، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت".

(53) محمد حسن فقي: الأعمال الكاملة : 63/6.

أين منه الكلـــدان ، يـــا مكـــة الـــــ (م) خير وأيـــن الرومـــان والإغريـــق

والـــبلاد التـــي تتيـــه، أجـــاءت *** بالـــذي جئـــت؟ أم هـــو التلفيـــق

مـــا يقـــيم الولـــود تخـــصب للنـــا (م) س مكـــان العقـــيم إلا الـــصفيق

ويقول:

لك فضل على المـــدائن يـــا مكـــــ (م) كـــة مـــا يجتويـــه إلا المـــروق

أين منـــه فـــضل المـــدائن يخلبـــــ (م) ـــن؟ وأيـــن الإغـــراء والتـــشويق

أين منه الغـــدير والـــروض والـــــ (م) ـــعزف، وأيـــن الطـــلاء والتزويـــق

إنما الحسن في النفوس فمـــا يَعْـــــ (م) ـــشقُ ثوباً مـــن الخيـــوط المـــشوق

أترانـــا مـــن الثـــرى فـــإذا الـــرو (م) ح غريـــب والحـــسن جـــسم مـــشيق

لـــصقت بـــالتراب أجـــسامنا الـــــ (م) ـــغلف فأهوى إلى اللصيق اللصيق[54]

هنا نرى الشاعر يخص مكة بالجلال والفخار والخصوبة، ويَدْخُل من خلال ذلك إلى المفاضلة مع المدائن والأمم الأخرى مسبغاً عليها صفة الخمول والمادية، وكاشـــفاً عن عبثية تيهها وفخارها وقشرية ما تدل به على غيرها. وهو في بنائه الأبيات علـــى خطاب مكة خطاب من يسمع ويعقل، وعلى المساءلة الإنكارية والتقرير يُخْرِج صـــفة التفضيل مَخْرجاً دراميًّا قادراً على الحلول في مسافة القراءة ليحمِّلها مهمة وصل هذه الصفة بعلاقاتها في رصيد الذاكرة وسجلها فاتحاً بأفضلية مكة بابـــاً مـــن التـــداعيات الإيمانية والتاريخية التي تستشعر الذاكرة الجمعية بها أفضليتها هـــي وتـــستعيد ثقتهـــا وقدرتها على الحضور.

(54) المصدر السابق: 64/6 – 65.

أما أحمد قنديل فيستوحي من (أم القرى) معاني الأمومة، حين يقول منطقاً مكة ومستمعاً إلى حديثها الحنون:

قُلْتِ في عزة العظيم تناهى *** وتعالى، فوق التسامح، قدراً
أمهاتُ القرى لديكم وإني *** أنا أم القرى على الدهر كُبْرى
أنا أم القرى بعدتم وغبتم *** أم أتيتم قصد الزيارة أجرا
كلكم هنا...هناك.. عيالي *** أين كنتم وقيتموا الدهر شرّا
أين كنتم ... أبنائي..فالكل يلقى *** باسمي الخالد المبارك... خيرا
كلكم في الكيان هذا سيحيا *** بين قلبي شفعاً بساحي ووترا
إن ساحي يمتد شرقاً وغرباً *** وجنوباً.. وشمألاً... أين قرًّا
في الكيان الكبير.. باركه الله *** كياناً.. بمن تقلد أمرا
في بلادي... وكل ساحٍ بلادي *** حيث روح الإسلام عزَّتْ مقرًّا
تلك يا مكتي.. مقالة أمٍّ *** فاز فيها البنون بالحب طُرًّا
بالحنان الكبير فاض بدفقٍ *** غمر القلب بالحنان.. فأثرى[55]

هذه الأبيات تقفنا أمام أمومة رمزية تتنزل البلاد والناس في الأصقاع المختلفة منزلة أبنائها، مفيضة عليهم حنانها وحبها، ومغدقة سماحتها وعطفها. وهي صورة تحيل الأفضلية من الذاكرة إلى الشعور، ومن التاريخ إلى الباطن النفسي، فإذا قلنا الأم قلنا الحياة والحنان، وقلنا الأصالة والانتماء، وهكذا لا يطل الشاعر في أبياته على مكة

(55) أحمد قنديل: مكتي قبلتي: ص 37 – 39.

من نافذة الواقع بل من نافذة الخيال، ولا يشير إلى حسيتها بل يشير إلى معناها الـذي يرتبها في مرتبة الأم من الأبناء، والأصل من الفرع، والمركز من الهـوامش – دون أن يلجأ إلى أفعل التفضيل.

وتأخذ أفضلية مكة عند حسين عرب بعداً آخر، في قوله:

أأم القرى يـا جنـة اليـوم والغـد *** ويا زينة الماضـي التليـد المجـدد

ترابك أنـدى مـن فتيـت معطـر *** وصخرك أجدى من كريم الزمـرد

أعز بلاد الله فـي الأرض موطنـاً *** ومولـد خيـر الأنبيـاء محمـد[56]

إن أفضليتها، هنا، تأخذ مطلق الثبات، لأنها "جنة اليوم والغد، وزينـة الماضـي التليد المجدد"، كما تأخذ مطلق النفاسة، لأن "ترابها أندى من فتيت معطر، وصـخرها أجدى من كريم الزمرد، وهي أعز موطن في الأرض". ومن ثم يمنحها الشاعر اسـم "الجنة" الرمز الإيماني المشع بالخيرية والرضوان الإلهي والنعيم، والمتداعي بالنقـاء والطهر والأمان، حيث الوثوق واليقين في زمن لا يتغيـر أو يتبـدل، ولا يحـول أو يزول.

4– البيت العتيق:

يذهب المفسرون في تعليل هذا الاسم إلى عدد من الأقـوال منهـا مـا يـورده الزمخشري عن قتادة: أنه سمي بالعتيق، لأنه "أُعْتق من الجبابرة، كم من جبار سـار إليه ليهدمه فمنعه الله" وعن مجاهد: "أنه لم يُمْلَك قط"[57]. وعنـد ابـن كثيـر "قـال

(56) حسين عرب: المجموعة الكاملة: 102/1.
(57) جار الله الزمخشري: الكشاف: 11/3.

خصيف: إنما سُمِّي البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار قط"[58] . وفي لسان العرب: "إنه أُعْتق من الجبابرة ولم يدعه منهم أحد، وقيل: سمي عتيقاً لأنه لم يملكه أحد"[59].

وهذه الأقوال مضافاً إليها ما شرَّعه الإسلام لمكة من حُرْمة وأمن[60] وما تمثل لها تأريخياً من عزة وحرية، إذ لم تؤد إتاوة، ولم تدن للملوك[61] – ينتهي بنا إلى تصور لمكة المدنية، التي يتحرر الإنسان فيه من عبودية الإنسان، وتنطلق فيها الذوات من عقال أنانيتها وقواقع انتماءاتها الطبقية والإثنية باتجاه فضاء التلاقي والتمازج والتحاور الذي تتلاقى فيه العقول والشعوب والأعراف وتتمازج.

ويهمنا في هذا الأفق تلك الموضوعة التي تداولها الشعراء عن مكة، في إشارتهم إلى الأنس والتحاور اللذين يطل عليهما الشعراء إطلالة المستمتع، وفي تصويرهم أجواء مكة التي تتبادل مع أهلها وساكنيها الوداد والصفاء، منفتحة بهم على الآفاق، ومقصرة مسافة الفروق وتضادها. .

يقول محمد حسن فقي:

نجد الأنس في رحابك والبسـ (م) ـطة حتى كأننا ما نضيق

ويقول:

يا نفوساً تطوف بالبيت لولا *** حرمة البيت ميزتها الفروق

أنت لولا الإسلام كنا نرى السبـ (م) ـباق منه يفوقه المسبوق[62]

(58) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: 218/3.
(59) ابن منظور: لسان العرب: مادة (عتق): 236/10.
(60) انظر خطبة الرسولﷺ في حجة الوداع.
(61) انظر: الجاحظ: الحيوان: 141/3.
(62) محمد حسن فقي: الأعمال الكاملة: 64/6 – 65.ويتحدث في قصائد أخرى عن صحبته من فتيان مكة وما يسود علاقتهم من وداد وفداء وأنس، انظر: المرجع السابق: م1 ص90 ، أو عن تشريف الله لمكة على كل الأمكنة الأخرى، وأن الله تعالى محا فيها الفوارق بين الناس إلا فارق التقوى، انظر: المصدر السابق: 90/1.

ويقول محمد حسن عواد [63]:

الأصـــابيح والأماســـي ينبـــضـــ (م) ـــن حيـــاة، علـــى ثـــراك شـــهية

كـــم تـــشهت مـــذاقها أمـــم الغـــر (م) ب فطارت بهـــا الأمـــاني العتيـــة

أمـــسيات مـــسحورة وأصابيـــــ (م) ـــــح تغـــذي انتفاضـــة الحريـــة

كـــل أصـــبوحة تتيـــه بعمـــلا (م) ق تبـــاهي بـــشأنه أمـــسية

وجبـــال مفتونـــة بالرمـــال الـــــ (م) ميـــث ممراحـــة الظبـــاء الأبيـــة

يسرح الذئب فـــي مـــساهبها الدهـــــ (م) ـــم، وتهفو القطـــاة والأرويـــة[64]

فالأبيات جميعاً قائمة على صورة لمكـــة تنفـــي الهيمنـــة والقهـــر والاحتكـــار– اجتماعياً، وتخيل ذواتاً متحدة التنوع ومتنوعة الوحدة.. وهو تنوع يقوم على الحريـــة من العقائد الضيقة، مثلما هي وحدة تنفي الإكراه والقسر والقولبة. وهذا هو ما يجعـــل مكة زمناً نابضاً بالحياة، وليس مكاناً فحسب للسكنى والتجمع، ولذلك تتولد العبقريـــة وينشأ العملاق، كما تشير الأبيات الأخيرة.

(63) ولد بجدة سنة 1320هـ/1902م ودرس فيها، نظم الـشعر صـغيراً، وعمـل فـي التعلـيم والصحافة، وعين مديراً لتحرير صحيفة " صوت الحجاز"، ثم تقلب في عدد من الوظائف الحكوميـة. أصدر سبعة دواوين شعرية، وقد جمعت في مجلدين، بعنوان" ديوان العواد". يعد مـن رواد النهـضة الشعرية والأدبية في السعودية، وأحد أوائل المجددين في الشكل الشعري، إذ كتب الشعر الحر والـشعر المنثور في وقت مبكر، وله كتب نثرية، تمثل جرأته النقدية للعادات والتقاليد الاجتماعية، من أبرزهـا: خواطر مصرحة، و ألفت عنه عدد من الكتب والدراسات والرسائل الجامعية. يبدو في شعره المنطـق والمحاجة العقلية، وإيثار النقد والهجاء الاجتماعي، توفي في1400/6/3هـــ الموافـق 1980/4/18م. (آمنة عبد الحميد عقاد: محمد حسن عواد شاعراً: ص25–80)

(64) محمد حسن عواد: ديوان (قمم الأولمب): ص 69 – 70. ويخاطب في قـصيدة أخـرى مكـة واصفا التعدد والتنوع للأجناس والشعوب التي تجتمع على ثراها، انظر: المصدر السابق: ص66.

خاتمة:

رأينا – إذن – الشعر، وهو يتناول مكة من خلال عدد من الموضوعات التي تستحيل بها مكة إلى رمز يتداخل فيه الغيب والشهادة ويتعانق الزمان والمكان، ويتجلى به التوق الإنساني إلى الطهر والنقاء وإلى الترامي إلى فضاءات المطلق حيث انصهار العدد واتحاد التنوع الإنساني.

وقد دخلت مكة في الشعر إلى فضاء التمثيل للمعاني الروحية والدينية تمثيلاً غنائياً يفقد المكان شيئيته وحياده ويصله بالروح في تدفقها وابتهاجها ولذتها بالقدر الذي تتجلي فيه تلك المعاني الروحية والدينية في التفاعل مع مكة مجلى الحس: بصراً، وسمعاً، وشماً، وذوقاً...

كما أخذت مكة، شعرياً، مداراً تقوم فيه مقام الزمان، ويتصور الزمان في صورتها لتنطق به وتدل عليه بوصفها مكان حدث الوحي وفضاء تشكل السيرة النبوية والإسلامية في صدرها الأول.

ولا تنفصل هذه المدارات الرمزية عن مدار الترميز الشعري لمكة في معاني الخصوبة والأمومة والجلال والفخار... على النحو الذي يصلها بالباطن النفسي مجاوزاً الواقع إلى الذاكرة، ومحيلاً الذاكرة من محتواها المعلوماتي التقريري إلى محتوي شعوري حي وندي بالإحساس.

كما أن لمكة صورة شعرية ملحاحة على وعي الشعراء بنفيها الهيمنة والقهر والاحتكار، وانعتاقها من العقائد والأفكار البشرية الضيقة مشرعة فضاءها الاجتماعي لكثافة زمنية هي ناتج تلقائي لتلاقي الأزمنة ولتلاقي الناس ولتلاقي السماء بالأرض.

وفي كل ذلك، لا نرى مكة "جغرافياً" بل نراها" تاريخاً" ولا نراها "مكاناً" بل نراها "ثقافة" ، لأن الشعر ، بوصفه أحد أبرز تجليات الثقافة ومظاهر التدليل على الذاكرة وتوليد كينونة الوعي الإنساني – تناول مكة من باب القراءة للرمز والتأليف للصورة واستنطاقها، فغدت مكة مدونة شعرية وفنية تؤلفها الكلمة بقدر ما يحققها الواقع.

المصادر والمراجع

أولا : الكتب الدينية

– ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت، 1388هـ/ 1969م.

– الزمخشري، جارالله: الكشاف، دار المعرفة، بيروت (د. ت).

ثانيا: الدواوين الشعرية

– زمخشري، طاهر: – ديوان أغاريد الصحراء، ضمن مجموعة النيل، ط1، مطبوعات تهامة، 1404هـ/1984م.

– ديوان أنفاس الربيع، ضمن مجموعة النيل، ط1، مطبوعات تهامة، 1404هـ/1984م.

– ديوان على الضفاف، ضمن مجموعة النيل، ط1، مطبوعات تهامة، 1404هـ/1984م.

– عرب، حسين: المجموعة الكاملة (ديوان حسين عرب)، شركة مكة للطباعة،1403هـ.

– العواد، محمد حسن: ديوان(قمم الأولمب) ، نادي جدة الأدبي (د.ت).

– فقي، محمد حسن: – الأعمال الكاملة، م(1)، الدار السعودية، جدة، 1984م.

– الأعمال الكاملة، م(6)، الدار السعودية، جدة، 1984م.

– القرشي، حسن: ديوان الأمس الضائع، ضمن ديوانه (المجموعة الكاملة) دار العودة، بيروت.

––قنديل، أحمد: مكتي قبلتي، ط1، دار الرفاعي، الرياض، 1402هـ/1983م.

ثالثا: الكتب العربية القديمة

– الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني، دار الفكر، بيروت، 1407هـ/ 1986م.

– ابن فارس، أحمد: الصاحبي في فقه اللغة وسر العربية، طبعة المؤيد.

– ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت (د. ت).

– الجاحظ، أبو عثمان: – البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، ط4، دار الفكر، بيروت، (د.ت).

– الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط3،دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1388هـ/ 1969.

رابعًا: الكتب الحديثة

– أحمد، د. محمد فتوح: الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، 3، دار المعارف، مصر، 1984م.

– إسماعيل، قباري محمد: علم الاجتماع والفلسفة، ط2، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية (د.ت).

– الكسندر، صموئيل: المكان، الزمان، الألوهية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، (د.ت).

– باقازي، د. عبد الله أحمد: مظاهر في شعر طاهر زمخشري،منشورات دار الفيصل، الرياض، 1408هـ/1988م.

– بنعبد العالي، عبد السلام: درس الابيستيمولوجيا، ط2، دار توبقال، الدار البيضاء، 1998م.

– جمعية الثقافة والفنون، دليل الكاتب السعودي، ط1، مطابع الفرزدق، الرياض،1404هـ/ 1995م.

– الرباعي، د. عبد القادر: الصورة الفنية في النقد الشعري، ط1، دار العلوم، الرياض، 1983م.

– ضيف، د. شوقي:– العصر الجاهلي، ط3، دار المعارف، مصر، 1976م.

– العصر العباسي الثاني، ط3، دار المعارف، مصر، 1977م.

– العصر الإسلامي، ط8، دار المعارف، مصر، 1987م.

– عقاد، آمنة عبد الحميد ، محمد حسن عواد شاعراً، مطابع المدني، جدة، 1405هـ /1985م.
– مجموعة من المؤلفين: المعجم الفلسفي المختصر، ترجمة: توفيق سلوم، ط1، دار التقدم، موسكو، 1986م.
– ناصف، د. مصطفى: الصورة الأدبية ، ط2، دار الأندلس، بيروت، 1401هـ/ 1981م.
– النجار، محمد عبد العزيز: ضياء السالك إلى أوضح المسالك، مصر، 1401هـ /1981م.
– النصير، ياسين: إشكالية المكان في النص الأدبي، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986م.
– اليوسف، يوسف: مقالات في الشعر الجاهلي، دار الحقائق، بيروت، 1985م.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2004/5/4.